الطريق إلى السعادة

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :



دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. وبعد:

فإن غاية ما يطمح إليه الإنسان ويتمناه في الحياة: تحقيق السعادة والاطمئنان! لذلك كان الطريق إلى السعادة أنفس ما ينبغي للمرء الحرص عليه وتمييزه تميزا دقيقا عن سائر الطرق المتشعبة في متاهات الضيق والتعاسة.

ومهما اختلفت التعاريف وتضاربت الحدود في تحديد مفهوم السعادة في الحياة، فإن كافة الدارسين لا يختلفون على أنها شعور نفسي ينبع من أعماق الإنسان ليبعث الإشراق في فكره وروحه وجوارحه وكل المشاهد من حوله.

فما هو طريق السعادة.. وكيف للمسلم

أن يظفر بها في الحياة؟

لا تنس الأسباب الشرعية للسعادة

تطالعنا المعارض والمكتبات بين الفينة والأخرى بكتب تتناول موضوع السعادة في البيت والأسرة، والحياة الشخصية.. ويشتد عجبي وأنا أحملق في واجهة من واجهات المكتبات وقد خصصت تلك الواجهة برمتها لكتاب غربيين يتناولون موضوع السعادة.. وما يتفرع عنها من المواضيع المتعلق بحياة الأسرة والمرأة بل وحتى الأطفال..
وأتساءل مع نفسي في اندهاش صامت: كيف لهذه الكتب التي دبجتها الأيادي الغريبة أن تعلم المسلمين السعادة!

طبعا فليست تلك الكتب بعيدة كل البعد عن قواعد السعادة في الحياة.. فهي تختزل بين صفحاتها عصارة التجربة الإنسانية لتصوغ منها قواعد ثابتة لتحصيل السعادة.. لكنها على حالها ذاك تفتقر إلى الأساس الذي به تحفظ السعادة وتنمو.. وتفيض وتربو.. فهي كتب تتسم بالجفاء الفاحش لكل ما يتعلق بالدين.. وتجد

الكاتب فيها يبرز شخصيّته وكأنه نبي مرسل، فهو من يقرر ما يسعد الإنسان وما لا يسعدهم دونما ربط لحقيقة السعادة بحقيقة الوجود وحقيقة الحياة وحقيقة الألوهية لله سبحانه في كل هذا الوجود!

لذا فإن المؤمن وهو يتناول موضوع السعادة يختلف اختلافا كليا عن غيره، فهو يتناولها مستشعراً أنها من أعظم نعم الله على خلقه.. هو خالقها.. وهو الذي يهبها لمن يشاء.. وهو الذي شرع لعباده السبل الميسرة لنيلها.. ونهاهم عن الطريق التي تنحرف بهم عن اكتسابها..

أخي الكريم.. إن أول خطوة في الاتجاه الصحيح نحو السعادة هي أن تعلم أنها بيد الله وحده.. هو مالكها وحده.. وهو الذي يمن بها على من يشاء من عباده وحده! فإذا عرفت ذلك لزمك الثبات على الاستعانة به سبحانه في أن يهب لك السكينة والطمأنينة والسعادة وراحة البال، والكفاية من مكدرات العيش ومنغصات الحياة.

ومن رحمته سبحانه وشفقته وإحسانه بخلقه أن علمهم سبل السعادة وجعلها سهلة يسيرة فمن آمن بكتابه وصدق نبيه هان عليه أمر تحصيلها، وإليك أخي الكريم جملة من الأسباب الشرعية اليسيرة التي تنزل بها السكينة وتحصل بها الطمأنينة وتتحقق بها السعادة..

1- تقوى الله سبحانه:فهي الاسم الجامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وأصلها أن تجعل بينك وبين عذاب الله وسخطه وقاية، وعذاب الله سبحانه يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة، وهو في الدنيا متعلق بالأرواح والأجساد، ومن عذاب الأرواح والأنفس ضيقها ونكدها وضنكها. قال تعالى: **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** [طه: 124]. وليس هناك شيء يقي المسلم من الضيق والضنك والعذاب النفسي خير من سلوك طريق التقوى باجتناب المحرمات والحرص على الواجبات والاستكثار من أعمال الخير والبر. ولهذا

كانت التقوى هي وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: 131]. ولله در القائل:

ولست أرى السعادة جمع

ولكن التقي هو السعيد

ومن تتبع ثمرات التقوى في الكتاب والسنة تبين له أنها الباب الأوسع والأيسر للسعاة قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: 2-3]، ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: 4].

2- الحرص على الأذكار الدافعة للهموم الجالبة للانشراح:وهذا يغفل عنه أكثر الناس ولا يلتفت له إلا القلة منهم، ذلك أن الله جل وعلا قد جعل في وحيه من البركة والفضل والرحمة ما لا يعلم قدره إلا هو، فمن عظَّم كلماته واستحضر معانيها الجليلة وأتى بها على الوجه الذي ارتضاه

لنبيه ناله ذلك الفضل وعمته تلك البركة ونزلت عليه تلك الرحمة، ومن الأذكار المسنونة في دفع الهموم وجلب السرور والفرح ما يلي:

- أذكار الصباح والمساء فإنها أنفع ما يستعين به المسلم على حياته كلها، وأنفع ما يجلب للمسلم الانشراح في صدره والطمأنينة في قلبه، فقد اشتملت على تعوذات نفسية من أسباب الضيق والحزن والهم والقلق والفزع، كما اشتملت على أدعية وأذكار جالبة للرضى والغنى والبهجة والسرور والكفاية والعناية من الله سبحانه، ويوشك من حافظ عليها أن لا يمسه السوء أبدا إلا بإذن الله، وأن يغمر بالسكينة والرحمة، ولذلك كان أسعد البشر وهو رسول الله محافظا على هذه الأذكار لا يخل بها أبدًا، ولطالما أوصى أمته بالمحافظة عليها في أحاديث كثيرة جليلة مبسوطة في كتب أذكار اليوم والليلة.

- الأذكار المؤقتة، وهي أذكار الأحوال العارضة، وهذه الأذكار فيها خير كثير

وفضل جليل، فرب ذكر اشتمل على كلمات وجيزة جعله الله وقاية من عظائم الآفات وكفاية من المهلكات فيمن ذلك أذكار النوم والاستيقاظ وأذكار الخروج والدخول وغيرها بحسب المكان والأحوال.

- الأذكار الدافعة للشرور: وهي جملة التعوذات والأدعية الثابتة في السنة وجاء التنصيص على أنها كلمات يدفع الله بها البلاء، وينجي بها من الهموم والأحزان والمصائب فمن ذلك أدعية الكرب والهم والحزن: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض رب العرش الكريم، فإن كان الكرب بسبب ظالم فزد على هذا الذكر: اللهم قني شر فلان" فيوشك أن ينتقم الله منه في الحال!! وكذلك: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث". وكذلك: "الله الله ربي لا أشرك به أحدا"، وكذلك: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"، وكذلك: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة

الرجال". وكذلك: "اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحد من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم نور صدري وربيع قلبي، وجلاء حزني وذهاب همي".

فهذه الأذكار كلها دواء من الأحزان وشفاء من الهموم والأنكاد، وإن الحافظ لها المحافظ عليها ليوشك –والذي نفسي بيده- أن يعيش أسعد الناس وإن كان فقيرا، وأنشط الناس في نفسه وإن كان عليلا، ما كان محافظا على أوامر الله وتقواه.

وهذه الأذكار وغيرها كالتهليل والتسبيح والاستغفار والصلاة على الرسول ﷺ كلها من موارد السعادة وينابيعها التي أعرض عنها عامة الناس وراحوا يلتمسون السعادة في الاعتناء بمظاهر اللباس والبيوت وغيرها من المظاهر، ولو أنهم انتبهوا إلى أنفسهم فزكوها بالأذكار، وإلى ذنوبهم

فمسحوها بالتوبة والاستغفار، وإلى أرواحهم فطهروها بالعبادة والرجوع إلى الله؛ لنشطت قلوبهم، ولذهبت همومهم، ولتفتقت ورود السعادة، وانساب عبيرها الناعم العذب في كل زاوية من حياتهم.

قال تعالى: **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** [الرعد: 28].

وهل السعادة إلا اطمئنان القلب؟!

فهذه أخي الكريم.. جملة من الأسباب الشرعية الجامعة، وهي بلا شك تتضمن جملة من الأسباب فمن ذلك الحفاظ على الصلاة، والصدقة، والإحسان وصلة الرحم وبر الوالدين والخلق الحسن، وكثرة فعل الخير عامة فكلها من أسباب الرحمة وأبوابها، وكلها أيضا تندرج تحت خلق التقوى العظيم الجامع لكل أعمال الخير، فمن رزقه الله الفقه في دينه ويسر له سبل التقوى، فقد وهبه مفاتيح السعادة وينابيعها فقد قال رسول الله ﷺ: «**افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من**

رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم» [رواه الطبراني وهو في السلسة الصحيحة 1890].

الأسباب الكونية

وأما الأسباب الكونية للسعادة فهي مرتبطة بحقيقة الحياة وقوانينها وطبيعة كينونتها وناموس الله الثابت فيها. فمما اتفقت عليها سائر العقول والملل والأديان أن الحياة لابد فيها من المجاهدة والمكابدة، والمغالبة، ويستحيل عقلا أن يعيش إنسان ما عارٍ عن المجاهدة والمدافعة في الحياة، والقرآن يقرر هذا المبدأ بوضوح، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾.

من هنا كان لابد على كل طالب للسعادة أن يوطن نفسه على ما تقتضيه هذه المكابد والمغالبة فماذا تقتضي؟!

1- توطين النفس على المكاره: فمن توقع أنه –ولابد- سيمسه شيء من السوء

وشيء من منغصات الحياة، وأن ذلك حاصل لا محالة لكل الناس، خف جزعه وقل فزعه، لاسيما إذا استثمر توقعه بتهيئة نفسه إيمانياً وصحياً ومادياً للوازم البلاء المتوقع.

ليس الأمر هنا متعلقا بالوسوسة وتوجس الشر والقلق في المستقبل، وإنما يجعل النفس قادرة على خوض معركة الحياة وتحمل قساوة العيش، واستواء حالة الغنى والفقر والصحة والمرض، والبلاء والعافية، وهذا أمر لا يحصل إلا لأحد شخصين.

الأول: قد غمر الإيمان قلبه حتى فاض على جوارحه فصار رضاه بقدر الله وقضاءه لا تزحزحه الأحوال كيفما كان أمرها!

والثاني: رجل ضعيف الإيمان أو لا إيمان له، لكنه أوتي من الخبرة والحكمة في الحياة ما جعله موقنا أن الصبر مفتاح الأمل، وأن الجزع والتعاطي مع البلاء لا يفيد شيئا في رده!

2- اجعل من المحنة منحة: وأما من رزقه الله فقها في أحوال البلاء وحقيقته وكيفية تلقيه والتعاطي معه وتصريفه، فقد رزق أعظم مفتاح يتقي به الفتن وينجح به في شدائد الامتحان. قال رسول الله : «**إن السعيد لمن جنب الفتن ولمن ابتلي فصبر**».

أخي.. لو تأملت بعمق في حقيقة البلاء الذي يتعرض له المسلم ودققت النظر في هيئة وقوعه العجيبة لأدركت أن المسلم مغبون إذا لم يكتسب طاقة يحول بها محنته القاسية إلى منحة مواسية! بيان ذلك:

فمما لا خلاف فيه أن أهم الأعمال التي لا يحصي أجرها ولا يعده إلا الله: الصبر. قال تعالى: **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** [الزمر: 10].

قال سليمان بن القاسم: "كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر".

ومن المعلوم أيضا أن الصبر يتفاوت بحسب تفاوت البلاء، وكلما كان صبر

المسلم شديدا كان أجره كبيرا كما أخبر النبي فقال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**» [رواه الترمذي].

من هنا فإن من ابتلاه الله ببلاء عظيم ثم هيأ له من أسباب الصبر ما يستطيع بها التحمل والتصبر، فإنه بذلك يكون قد أكرمه ولم يهنه، وقد ابتلاه ليعطيه على قدر صبره وجلده..

وأما من لم يبتله الله ألبتة فلربما لأنه لا يستحق دخول الامتحان.. وليس له أهلية لدخول مضمار السباق.. وليس ممن يستحقون الأجر بغير حساب..

أخي الكريم: هكذا ينبغي أن تنظر إلى الأمور.. أن تتفحص في عواقبها.. وأن تزنها بشمولها في الدنيا والآخرة.. وأن تستخرج منها كل ما هو إيجابي ثم تقارن بينه وبين السلبيات.. فإن فعلت ذلك مع كل بلاء أصابك فلابد وأنه سينقلب في حقك إلى سبب من أسباب السعادة لأنك ترى بعين عقلك عاقبة البلاء فتهون معها ما يعتريك من قهر وجهد ونحو ذلك مما يظهر للآخرين

أنه بلاء.

وهذه أيضا قل في الناس من يفطن لها، ولكم كان السلف الصالح حريصين على هذه الخصال في حالهم مع البلاء.

قال ابن أبي الدنيا: "كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب".

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم..